الفصل الرابع عشر

قدر وتغيير

قدر. وقت. فرصة. حظ وتغيير.
لهذه الأشياء تخضع الأمور جمعاً شيللي

كان المستفيد الوحيد من الحملة الصليبية الثانية هو نور الدين، فقد سيطر على الرها كما استحوذ على معظم الأراضي شرقي نهر العاصي التي تخص إمارة أنطاكية، ورغم أن الدمشقيين كانوا في خوف من طموحه وقوته، إلا أنهم كانوا على علاقة ودية معه أكثر من ذي قبل بعد الهجوم على مدينتهم، كما كان ريموند أنطاكية الشخص الوحيد الذي رأى وضوح أن نور الدين أخطر الأعداء الذين واجهوا الإفرنج في الممالك الصليبية، ولكن نصيحته رفضت من قبل إخوانه الأمراء، ومن ظلم التاريخ القاسي أنه قدر له أن يدفع جزاء عماهم.

ففي حزيران 1149 بعد فترة من مغادرة الملك لويس الأرض المقدسة سار ريموند إلى إنقاذ إحدى القلاع القليلة المتبقية في حوذته وذلك إلى الشرق من نهر العاصي التي حاصرها نور الدين، وأخذ معه ما يقارب أربعة آلاف فارس وألف رجل مشاة، وعندما سمع نور الدين بقدومه سارع إلى رفع الصحار والتراجع عن المكان، فقد أخبر أن جيش ريموند أكثر عدداً مما هو في الواقع، وقد اعتقد هو نفسه أنه متفوق عليه، ولكن الحقيقة كانت مختلفة فقد تألف جيش المسلمين من ستة آلاف فارس مما جعله أقوى من جيش

المسيحيين، ولم يمض وقت طويل قبل أن يعلم بالحالة الواقعية للأمور، وحالما علم ان ريموند كان الضعيف بينهما، تحول إليه وصمم على تدميره. وفاجأ جيشه الإفرنج في مكان تعسكرهم ليلاً في مضيق، وأحاط بهم قبل أن يدركوا ذلك، وكان موقع الأرض ضد ريموند وهبت الرياح محملة بالغبار في عيون فرسانه عندما حركوا خيولهم لصعود المنحدرات نحو أعدائهم، وقبل منتصف النهار كان جيشه قد خذل، ومات ريموند، وقطع نور الدين الذي لم يتفوق عليه الأتراك الدانشمند الذين أعدموا حما ريموند (والد زوجته) ـ رأسه وأرسله في صندوق فضي إلى الخليفة في بغداد ليضيفه إلى مجموعته، ولم يدون ما إذا كان إمام المسلمين السنة قد ارتفع قدره بذلك أم لا، بنعمة الرب الأخيرة التي أضفاها على جنود الرسول، وليس ثمة من سبب للافتراض أنه لم يكن مسروراً به.

ولم يساعده جوسيلين صاحب الرها، ريموند على الإطلاق، بل أبرم هدنة هشة مع نور الدين، في حين كان يقاتل إخوانه المسيحيين من أجل أرواحهم، وكان دوره التالي هذه المرة أكثر عدالة مما كان في قضية ريموند، حيث بات عليه أن يدفع جزاء أعماله السابقة، فبعد ستة أشهر من موت ريموند نقض بازدراء نور الدين هدنته مع جوسيلين وهاجمه، وبشكل مفاجئ نال جوسلين بعض النجاح أولاً، ولكن في ربيع سنة 1150 أسره بعض الأتراك في وقت عصيب عندما افترق لحظة عن رفاقه، وكان متجهاً إلى أنطاكية، وسلمه آسروه إلى نور الدين الذي سمل في الحال عينيه ورماه في السجن وهناك وفي حالة عمى وحزن نُسي، ثم مات بعد تسعة أعوام.

وتبع موت ريموند وأسر جوسيلين قتل كونت طرابلس على نحو غير معقول في الظاهر من قبل عصبة الحشيشية، وأضاف ذلك طرابلس إلى الأمارات التي بدون حكام، والتي قلق عليها أولئك الذين نجحوا في مؤامراتهم أو مؤامراتهم المضادة، وقد انغمسوا في لعبتهم المألوفة في سياسة القوة الحاكمة، وسارع بلدوين الثالث الذي لم يتجاوز من العمر الحادية

والعشرين إلى السير شمالاً لإنقاذ مدينة أنطاكية من أيدي نور الدين الذي اضطر إلى الرضا بما حاز في ذلك الوقت، ووقعت هدنة، وبالتالي ضمنت فترة تنفس ظهر فيها قادة جدد للدويلات الشمالية، فقد كان لجوسلين الثاني ابن أصبح في المدة الأخيرة حاكماً اسمياً للرها التي توقفت عن الاستمرار بالفعل، ولذا كانت مشكلتها أصغر من الاثنتين الأخريين، كما خلف ريموند في طرابلس ابنه الذي لم يتجاوز الثانية عشرة وانتقلت حقيقة السلطة إلى أييد أمه، بينما أصبح بلدوين الذي كان نفسه أكبر بخمسة أعوام من الأخير، وصياً عليه، وبالنسبة لحالة أنطاكية التي كانت في ذلك الوقت أهم الأمارات الثلاثة، رغم أنها فقدت بعض أراضيها وعدداً من قلاعها، صعب البحث عن خلف بعد ريموند، وتأجل ذلك طويلاً لأن أرملته الأميرة كونستانس رفضت بإصرار وعناد الزواج من أحد المرشحين المتعددين الذين تقدموا لطلب يدها، ومع ذلك، فبعد ثلاثة أعوام تقريباً من التردد والمراوغة حزمت أمرها، ولكن البحث عن أمير جديد لأنطاكية كاد بصعوبة ينتهي إلى وضع أكثر خطورة، واختارت كزوج لها فارساً كان قد قدم إلى الأرض المقدسة مع لويس السابع في الحملة الصليبية الثانية. ويدعى هذا رينالد أوف تشاتيلون، (أرناط) وهو شخص بغيض جمع في شخصه الواحد أكبر عدد من الصفات غير المقبولة التي لا توجد في رجل واحد، وإذا كان لديه من سمة تذكر، فإن التاريخ لا يعرف عنها شيئاً، اللهم إلا إذا اعتبرنا طيشه وتهوره شجاعة.

وساءت الفوضى والتشوش لدى الإفرنج أكثر بسبب نزاع عنيف انفجر في ذلك الوقت بين الملكة ميليسندا في القدس وابنها بلدوين، كاد يسبب حرباً أهلية بينهما. ومع السنين، بدأ بلدوين يكتشف سيطرة أمه بشكل متزايد، ومزعج وصمم أن يقطع خيوط سلطانها ويحرر نفسه، وصممت ميليسندا بشكل مساو التشبث بالسلطة دون إذعان لما يمكن أن يقوله أو يفعله، فانقسمت المملكة بين معسكرين: الأول دعم الملكة، والآخر وقف إلى جانب بلدوين، وأخفقت ميليسندا في النهاية في تحقيق غايتها بمحاولتها

إقصاء ابنها عن عرش القدس، ونظراً إلى أنه كان الملك فقد وجد بشكل واضح سبب لتخلي مؤيدوها عنها، وهكذا اضطرت أن تتراجع عن الدور السياسي وتتخلى عنه.

وبعد أن قبض بلدوين أخيراً فعلاً على السلطة في المملكة التي كان فيها الحاكم الإسمي، منذ أن صار في الثالثة عشرة من العمر، تاق إلى أن يثبت نفسه أمام تابعيه أنه قد كبر، وكان قد أصبح رجلاً ضخماً، ذا كتلة شعر ناعمة، وذقن كثة كبيرة، وكان ذكياً وواضحاً، وحسن الثقافة وقد كسب سمعة لنفسه باللطافة والسلوك الطيب، وضعته في المكان الجيد، وأحبه الشعب بكل صفوفه ووافق بشكل جيد كل نماذجه وطبقاته، وبتفكيره بجدية أكثر في أتباعه، نال سروراً حقيقاً في مناقشة الأمور الخطيرة الهامة، فلم يكن مطلقاً شخصاً تافهاً مملاً، بل كان سعيداً أن يرمي النرد للرهان مع صديقه، أو يكون متغازلاً مع فتاة حلوة مثلما كان يتكلم في السياسة إلى شخص ما أو إلى وزرائه، أو يتكلم في الدين مع أسقف.

كان هناك متسع صغير ليبرهن فيه عن قدراته في شمال الممالك الصليبية حيث كان نور الدين قوياً جداً لإغرائه في مغامرة عسكرية محفوفة بالمخاطر، رغم أنه استطاع بل منعه من أخذ دمشق لفترة، بوعده مرة أخرى بمساعدة الدمشقيين، الذين كانوا مستعدين لنسيان سلوك الإفرنج الأخير كما كانوا متخوفين جداً من ابتلاعهم من قبل جارهم المسلم المتفوق في القوة، في حين كانت الخلافة الفاطمية في مصر تعاني وضعاً فوضوياً سيئاً أكثر من الإفرنج، وقدمت نقطة الضعف لدى المصريين إمكانيات مغرية معينة لبلدوين، ونتجت تلك الحالة من السلوك المروع لسلسلة طويلة من الفساد والوزراء عديمي الضمير، الذين قتل كل فرد منهم سابقة، فقط ليقتل بدوره من قبل خلفه، وهم جميعاً حكام ضعاف مترددوا برهنوا أنهم غير قادرين على السيطرة، فقد كانت هناك اضطرابات دموية في القاهرة، وفي إحدى المراحل تقاتل طموحان حول

الملتهبة، وكل أنواع القذائف المهلكة من فوقها إلى داخل الشوارع، وفي إحدى الليالي من شهر تموز سنة 1153 تسللت حامية مصرية بهدوء خارج المدينة، وأوقدت النار في البرج، فاحترق بشدة مثل مشعل كبير، ولكن من سوء الحظ بالنسبة للمدافعين أن هبت الألسنة نحو الأسواء حيث دمرت الحرارة الشديدة للنيران الملاط بين الصخور التي انهارت، وعند الصباح كانت هناك ثغرة، وحصل الفرسان الداويه على مدخل إلى شوارع المدينة بعد عبورهم الثغرة الساخنة، وفي أيديهم سيوفهم، ولم يدخل غير أربعين منهم، ولم يتركوا المجال ليلحق بهم آخرون إلى داخل المدينة. وصمموا على أخذ كل فرصة من أجل الاستيلاء عليها، ورغم أن المصريين اعتقدوا أن كل شيء قد تم فقده، لكنهم سرعان ما تحققوا أنهم قلة قليلة من الرجال الذين تعين عليهم أن يكافحوهم، وتحولوا إلى الفرسان وقتلوهم. ثم كدسوا جثثهم في ثغرة السور حتى يتم إصلاحه. وعلقت جثثهم بازدراء كطبقة مؤقتة في أعمال البناء لتفسد في أشعة الشمس.

وكانت خيبة الأمل مروعة، إلى حد أنه كان هناك بعض الناس في صالح رفع الحصار والاعتراف بالهزيمة، لكن المقدم الأكبر للداوية كان معارضاً لذلك، وأخيراً فعل ما أراد، واستمر فرض الحصار، وبعد حوالي شهر في 19 آب، وبعد تحمل لقصف.

آخر مرهق للأعصاب وشديد، قررت الحامية أخيراً ان ذلك يكفي، وعرض القائد تسليم المدينة إلى بلدوين، إذا أبقى على روحه مع أرواح جنده جميعاً، ووافق بلدوين، وعلى عكس العديد من الصليبيين التزم بكلمته أمامه، وخرج الجنود المصريون ومواطنو عسقلان خارج المكان دون ازعاج، بينما سار بلدوين الثالث إلى الداخل كفاتح للمدينة وهو في الثالثة والعشرين من عمره، فلقد أثبت أنه قادر على دحر خصومه المسلمين في الحرب، كما برهن أنه قادر على مقاومة اغراء القيام بمذبحة وقتلهم عندما كانوا تحت رحمته، فكان ذلك انتصاراً مضاعفاً، ولعل الانتصار الثاني كان الأعظم والأندر

فيهما، في سجلات تاريخ الصراع بين المسيحيين والمسلمين في القرن الثاني عشر في الممالك الصليبية، وكما كان نصر بلدوين عظيماً برهن الاستيلاء على عسقلان أنه شيء مثل الانتصار البروسي (الباهظ الثمن) لأن امتلاك المدينة أغرى خلفاءه على الانغماس في مغامرات عسكرية ضد مصر، في الوقت الذي كانت حاجتهم الحقيقية في التصدي لتهديد وجودهم الذي فرضه نور الدين وحلفاؤه في الشمال، وكان ذلك خطأهم العظم، وينبغي ألا يدع هذا ينقص قدر انتصار بلدوين التوأم، فالأول الانتصار العسكري العظيم، والآخر انتصار للانسانية.

وقدر لسقوط عسقلان أن يكون الانتصار المسيحي العظيم الأخير في الشرق، لكنه أحبط بشكل مفاجئ بانتصار أكبر حققه نور الدين في الشمال، حيث فتحت أخيراً دمشق أبوابها له، وبشكل طبيعي فقد حاكم المدينة، وكان يدعي مجير استقلاله، ولكن المواطنين في المكان لم ينسوا الهجوم الذي قام به الإفرنج على مدينتهم، كما أنهم لم يحبوا سياسة مجير في حفظ ميزان القوة بين الصليبيين النصارى المتغطرسين من جانب وبين الجل الذي اعتبره الاسلام نصير العقيدة من جانب آخر، وأثار عملاء نور الدين في المدينة شعوراً ملتهباً بعدم رضاهم، وفي 23 نيسان وفي أقل من سنة من سقوط عسقلان فتح سكان دمشق أبواب المدينة له ولجيشه، ورحبوا به بطرب، فدخل دمشق في موكب نصر كبير ومن ثم هيمن على شمال سورية كله.

ولحسن الحظ بالنسبة للمسيحيين، سقط نور الدين صريح المرض بشكل خطير بعد فترة وجيزة من استيلائه على دمشق، ثم مات بعد ذلك. وكانت فترة نقاهته بعد المرض بطيئة ولم يستعد كامل صحته السابقة أو تألقه القديم. ولذا منح أعداؤه فترة تنفس لم يكن بإمكانهم أن يترقبوها، وكانت هذه قد تأجلت بسبب حادثة أخرى غير متوقعة، فقد ضرب زلزال سنة 1156 كامل سورية ودمر تحصينات العديد من المدن الرئيسية والقلاع الاستراتيجية، فقد انشغل رجال نور الدين في اصلاح أسوار حلب ودمشق، وعشرات الأماكن الأخرى

لشن حرب عدوانية ضد الإفرنج الذين انشغلوا بشكل مشابه في محاولة اصلاح التخريب الذي حصل في أماكن أخرى خاصة بهم انما لم تعان كثيراً مثل تلك الأماكن في الشمال، ومع ذلك فد كانت مدمرة بشكل شامل، ولكن رجلاً واحداً لم يتأثر بالهدنة المفروضة، بل في الواقع منحته نوعاً من الفرصة ليندفع كالمسعور، مما جعله مسروراً. وبقدر ما كانت النتائج بالنسبة للناس الآخرين مهمة، بقدر ما كان هو غير مهتم، لأنه ما دامت شؤونه قد نجحت فانه كان سعيداً، فقد خطا رينالد أوف تشاتيلون الأمير الجيد لأنطاكية إلى مرحلة جديدة في التاريخ وعليه جاء عمله الأول متصفاً باللامسؤولية والبربرية.

لقد قرر غزو جزيرة قبرص ونهبها، وكان سكانها مسيحيين، لكن ذلك لم يزعجه، ولا حقيقة أنها جزء من الامبراطورية البيزنطية، التي كان الإفرنج في الممالك الصليبية حلفاء لها، وفي حالة سلام معها، وقبل خمسين سنة وعندما كان رجال الحملة الصليبية في جوع عند أسوار أنطاكية، وفيما بعد أيضاً خارج القدس، قدم سكان قبرص لانقاذهم، بارسال كل الطعام الذي تمكنوا من جمعه، ولم يعن كرمهم شيئاً بالنسبة لرينالد، ولكن الشيء الوحيد الذي أعاقه عن شن هجومه على الجزيرة فقره إلى المال، وسرعان ما عالج ذلك بطريقته الفريدة، فقد كان بطريرك أنطاكية رجلاً غنياً يدعى أيمري، وكان رينالد يكرهه إلى حد كبير، ودعاه للمثول أمام حضرته، وأمره أن يعطيه مبلغاً ضخماً من المال له، وعندما رفض رئيس الأساقفة إعطاءه ذلك، ألقاه في السجن وضربه، وفي أثناء العملية جرح رأس ايمري، ولما سمع رينالد بذلك أمر بفرك العسل في الجرح، وأن يعرض البطريرك طوال النهار في أشعة الشمس وهو مقيد ومحبوس لتقنعه الحشرات أن يتخلى عن ماله، وبعد يوم من التعذيب، قرر الرجل البائس ألا فائدة من المقاومة، ووافق على إعطاء رينالد المال الذي يطلبه، وواصل رينالد خططه لغزو قبرص بعد سروره بنجاح خطته الصغيرة.

وبعد اطلاق سراحه، أسرع البطريرك المهان إلى مغادرة المدينة، وسعى

إلى الالتجاء إلى القدس، حيث ارتاع الملك بلدوين لقصته، وأرسل رسالة إلى حاكم قبرص البيزنطي بالسرعة الممكنة ليحذره من خطره، ولكنها وصلت متأخره جداً، فقد سبق أن نزل رينالد إلى اليابسة فوق الجزيرة ومعه نصف جيشه، وقد رافقه في هذه المغامرة أمير ارميني كان في حرب مع الامبراطور البيزنطي، ولذلك لم يؤنبه ضميره للاشتراك في الغزو المسلح على الجزيرة البيزنطية، وتفوقت قوات رينالد والأرمني في عدد الرجال على أولئك الذين كانوا تحت تصرف حاكم قبرص لذلك سرعان ما أبيدو أو أسروا. وقد كانت قبرص في سلام لأكثر من قرن من الزمن، كما كانت خصبة ومزدهرة، وبعد هزيمة القوات المحلية وقعت تحت رحمة رجال رينالد، فلم يوفروا منها شيئاً، وقاموا لفترة ثلاثة أسابيع بنوبة قتل واحراق مبانٍ، وسلبٍ ونهب لا يوازيها تسجيلات بربرية في عهد بربري، فلم يتركوا شيئاً مقدساً. فمن كنائس وأديره وغيرها، سرقت جميعها، كما أتلفت المنازل ونهبت المحال، وسلبت القرى والبلدان، ثم أحرقوا المحاصيل ودمروا البساتين وسرقوا الحيوانات وساقوا سكان الجزيرة إلى الساحل مثل المواشي، وسبيت النساء والفتيات وقطعت حناجر الكبار والشباب وكل من قاومهم. واستمرت الأعمال الوحشية حتى وصلت انباء تفيد باقتراب أسطول بيزنطي، واستعد الإفرنج والأرمينيون لمغادرتها آخذين معهم معظم الأشخاص القياديين في الجزيرة، حتى يستطيعوا أن يفتدوا أنفسهم، أما الباقون بما فيهم بعض القساوسة اليونانيين الذين شوهت أنوفهم بالقطع فقد جمعوا في طرق مختلفة وتركوا ليجدهم البيزنطيون لدى وصولهم.

ولم يقدر لفرار الأمير الجديد في أنطاكية أن يغفر له الامبراطور مانوئيل، كما لم يسر الملك بلدوين في القدس ما قام به أيضاً، فقد كانت وحشية رينالد القاسية سيئة بما فيه الكفاية ولكن عدم مسؤوليته الكلمة كانت أسوأ، وكان مانوئيل لا يزال امبراطور أقوى دولة مسيحية في منطقة شرق البحر المتوسط كلها، وربما اقوى دولة مسيحية في العالم، وليخاصمه ذاك لى نحو

غير مسوغ كان أمراً جنونياً غير مسؤول، تماماً في الوقت الذي اتحدت فيه قوى الاسلام تحت قيادة نور الدين في عزيمة جديدة لطرد المسيحيين خارجاً نحو البحر، ونتيجة لذلك، قرر بلدوين السعي لعقد حلف مع مانوئيل، وبعد حوالي أكثر من عام من المفاوضات وقعت القوتان معاهدة بينهما. ودعم ذلك فيما بعد زواج بلدوين من ابن أخ مانوئيل الصغيرة الأميرة ثيودورا. التي لم تتجاوز عامها الثالث عشر، والتي سرقت قلب بلدوين تماماً، كما كان زواج تناسق سياسي، ووقع بلدوين في حبها في لحظة نظره إليها، وكان حتى ذلك الوقت كثير الاختلاط غير الشرعي، ولم يكن مسرفاً ولا مقتراً مع صديقاته، إلا منذ لحظة زواجه من ثيودورا بقي مخلصاً لها تماماً كما بدت انها أحبته بدورها.

وبموجب هذه الاتفاقية، وافق بلدوين على دعم مانوئيل ضد رينالد أوف تشاتيلون، ولذلك عندما، في خريف 1158، زحف مانوئيل خارج القسطنطينة على رأس جيش هائل مصمماً على تأديب الأرمن الذين ساعدوا في سلب قبرص أولاً ثم أمير انطاكية اللعين، وكان يعلم أنه ليس هناك ما يخيفه من ملك القدس، وسار بسرعة كبيرة ونجح تقريباً في مفاجأة الأرمن الذين كانوا قد تدبروا أمرهم قبل ذلك بقليل في النجاة والهروب من غضبه انتقاماً، كما أخافت أخبار قدومه رينالد، ونظراً إلى أنه لم يستطع أن يمل في وقف الامبراطور أو جيشه، فقد قرر أن يستسلم له، ويطلب غفرانه، حتى لو اضطر أن يتذلل له ويستخدمه. وعندما وصل مانويل والجيش البيزنطي إلى أنطاكية في أواسط سنة 1159، أذلّ نفسه أمامه، وتلقى أخيراً غفرانه الضنين، ثم دخل الامبراطور أنطاكية في فخامة، وانضم إليه بلدوين هناك، وكانت هذه المرة الأولى التي يلتقيان، وأعجب مانويل بسحر الرجل الشاب، وكان اجتماعهما نجاحاً عظيماً، ومع ذلك، فإذا حاول بلدوين أن يستخدم مساعدة حميه (والد زوجته) في الهجوم على حلب كما اقترح غالباً في السابق، فقد أخفق، وبدلاً عن ذلك. وقع مانويل بعد أسبوع هدنة مع نور الدين يكون في شروطها افرنج

الممالك الصليبية في حماية من هجمات القائد المسلم، في حين يطلق يده حرة لقتال السلاجقة في الأناضول الذين كانوا أشد خطراً بالنسبة له من نور الدين.

وبعد أن أعاد ترسيخ نفوه في سورية، وبعد أن أظهر قدرته على التدخل بشكل فعلي هناك لصالح إخوانه المسيحيين عاد مانويل إلى القسطنطينة، ورغم أن بعض الإفرنج اعتبروا أنه قد خانهم بعدم الاستمرار في اعلان الحرب ضد نور الدين، لكن تحقق معظمهم أن الامبراطور البيزنطي أنقذهم منه حين خلق توازناً جديداً للقوة في المنطقة طالما تركهم نور الدين وحدهم، ولم يتدخل مانوئيل أيضاً. ومقابل ذلك سعد الإفرنج بشكل كاف لترك السوريين وحدهم، وخاصة حين بدا أن ذلك يشجعه ليشن حرباً ضد منافسيه الأتراك السلاجقة بدلا منهم أنفسهم، ولا حاجة للقول أن قلة من الناس، أما أنهم لم يفهموا الوضع الجديد، أو إذا أدركوه فقد اهتموا قليلاً، أو أنهم لم يهتموا مطلقاً للصالح العام المصان ما دام ذلك مستمراً، بل هناك حاجة للقول أن رينالد أوف تشاتيلون كان أحدهم، وبعد سنة من ركوعه بتواضع فوق التراب أمام مانويل، ووعده إياه بالتصرف بخير، نكث بكل سرور بوعده، والهدنة الجديدة مع الجيران المسلمين بالاغارة على أراضي نور الدين، والاستيلاء على غنائم من الماشية والجمال والخيول التي كانت تؤخذ إلى مراعيها الشتوية، وربما كانت النتائج خطيرة إلى حد كبير، ولكن هذه المرة هجره حظ الشيطان، وأسر رينالد من قبل بعض رجال نور الدين قبل أن يتمكن من الوصول إلى مقره، ووضع في السجن في حلب. ومنذ ذلك الحين لم يظهر أحد من إخوانه الإفرنج حماسة لافتدائه، وبقي هناك لفترة ستة عشرة عاماً.

وبعد سنتين مرض بلدوين ثم مات، فقد أخذ عليلاً وهو مسافر، وحينما مر بطرابلس عالجه طبيب سوري، ولكنه لم يتحسن واستمر في رحلته حتى وصل بيروت حيث لاقى حتفه في العاشر من شهر شباط 1162 عن عمر يناهز الثانية والثلاثين سنة، وكانت خسارته لا تعوض، فقد كانت أعماله جميعاً

أعمال ملك متمدن وعظيم، فبكاه الناس من حوله بكثرة إلى درجة أن الفلاحين المسلمين في الأرياف التي مر بها جثمانه محمولاً إلى القدس اصطفوا على الطرق لالقاء نظرة احترام أخيرة عليه، وعندما حث أحدهم نور الدين على انتهاز الفرصة التي قدمها موته، بالهجوم على الإفرنج، رفض وقال: إنه من الخطأ الاستفادة من أمه تبكي على موت أميرها العظيم.

ولم يكن لدى بلدوين أطفال فخلفه أخوه الأصغر أمالرك الذي شابهه في عدة نواح، فكان طويلاً بديناً، رغم أن أخاه كان أطول منه، ولكنهما من حيث البشرة والسمات كانا متشابهين إلى حد بعيد، فكان لأمالرك لحية شقراء كثة كبيرة وكذلك شعره أشقر. أما أنفه الروماني فكانت تماماً مثل أنف أخيه، غير أن الأخ الأصغر الذي كان في السابعة والشعرين عندما اعتلى العرش، افتقر إلى سحر أخيه واطمئنانه في عاداته، فكان صموتاً غير اجتماعي إلى حد ما، ويرتبك في عشرة الناس الآخرين، لأنه كان يتعلثم قليلاً، ولم يشارك أخاه في تذوقه للمقامرة، وفضل بدلاً عن ذلك ملء وقته الفارغ بالقضايا الغرامية التي جعلته سيئ السمعة إلى حد ما، رغم أن بعض المتابعة الجدية خاصة في دراسه التاريخ والحقوق جذبته، وأخيراً كان يعاني من مشاكل صحية، ولديه نزعة شديدة إلى المال، ولذلك اتهمه بعض الناس بالجشع، ولكن لم يكن جشعاً مطلقاً بل ساقه ذلك للتأكد من كون خزينته ممونة دوماً بشكل جيد بالنقود، فقد أدرك أنه بدونه سيكون عاجزاً سياسياً، في حين أنه يستطيع بالخزينة المليئة أن يفعل القليل أو الكثير مما يريد في الشؤون الداخلية والخارجية.

وفي وقت اعتلاء أمالرك العرش وقع ظل نور الدين الطويل على طول الإمارات الإفرنجية من أطراف الرها في الشمال عبر أنطاكية إلى القدس في الجنوب، وأدرك أمالرك أن شيئين فقط كان يقفان بينه وبين الدمار: قوة الامبراطورية البيزنطية، وضعف مصر، ولذلك صمم على الحفاظ على علاقات طيبة مع الامبراطور مانويل مهما كلف الأمر فإن ذلك ضروري، كما عزم أيضاً على محاولة مراقبة مصر لأنه خاف إن لم يفعل ذلك فإن ضعف

الخلافة الفاطمية وحالة الفوضى الفعلية في أنحاء البلاد ربما أغرت نور الدين بمحاولة الاستيلاء على السلطة هناك، وإذا حدث ذلك، فسيجد المسيحيون في الممالك الصليبية أنفسهم في وضع خطير للغاية وهذا ما قصد أني منعه إذا استطاع.

وكان الوضع السياسي في مصر دموياً وغريباً جداً إلى درجة أنه يستحق وصفه في تفاصيل قليلة، رغم أنه سيكون وصفاً لأشخاص تقريباً، ففي وقت سقوط عسقلان كان الوزير رجلا يدعى عباس، والخليفة الظاهر وكان للوزير ابن يدعى ناصر بدا أن للخليفة معه قضية لواط شهوانية عميقة، وأغاظت المسألة والد ناصر، ليس لأسباب أخلاقية بل، لأنه خاف أن يضع الخليفة ابنه ضده، وتحققت مخاوفه، فقد رضي ناصر أن يقتل والده، ومع ذلك أقنع أحد الخواص المشاركين في تلك المؤامرة، الشاب ناصر بأنه ربما من الأفضل قتل الخليفة بدلاً من أبيه واستلام السلطة، ووافق ناصر، فدعا الغلام عشيقه إلى فسوق ليلي في بيته، وعندما وصل الخليفة طعنه وقتله، فأعلن والد ناصر الوزير على الفور أن الخليفة قتل بأيدي إخوته الذين اعتقلهم، وحكم عليهم بالموت، ثم نصب الفائز ابن الرجل المقتول ذا السنين الخمسة على العرش، وكان الطفل شاهداً لقتل عمومته لذا لم يكن غريباً أنه عانى من الاضطرابات الشديدة بقية حياته، وحتى ذلك الوقت بدا أن كل شيء سار على ما يرام بالنسبة للوزير وابنه، ولكن الخليفة ترك أربع زوجات لم يكن مسرورات بعبث زوجهن الجنسي مع الرجل الشاب ناصر، ولم ينخدعن بالروايات الرسمية للحوادث التي أخرجها والد ناصر الوزير، ونظمن ثورة عسكرية ضد الاثنين المنتصرين ظاهرياً فهربا خارج البلاد، وعندما كانا يعبران صحراء سيناء، هجرهما الحظ، فالتقيا بفرسان من الداوية قتلوا الوزير عباس، وجعلوا ابنه سجيناً، وعرض على الشاب أن يصبح مسيحياً إذا أبقوا على حياته، ولكنهم تلقوا عرضاً بستين ألف دينار مقابله من قبل الأرامل الأربع المنتقمات للخليفة الأخير في القاهرة، وقرر هؤلاء قبول ذلك العرض، وأعيد ناصر كما ينبغي

إلى مصر، وسلم إلى رحمة وحنان الأرامل الأربع فضاعفن من تعذيبه بطرق مؤلمة بارعة مختلفة قبل أني تم شنقه.

وفي أثناء ذلك، استلم قائد الثورة العسكرية وهو رجل أرمني دعي رزيك، الوزارة تحت السلطة الاسمية للخليفة ذي الخمسة أعوام، وعادت الأمور إلى مجاريها لعدة سنوات حتى مات الغلام الصغير، وحل محله خليفة للبلاد ابن عمه الذي كان له من العمر تسع سنوات، وتزوج هذا أخت رزيك، وفي هذا الموضوع تدخلت إحدى سيدات العائلة مرة أخرى، وأقنعت عمة الخليفة بعض أصدقائها بطعن الوزير رزيك لدى عبوره خلال قاعة القصر، ووافقن على القيام بذلك، ولكن في تلك الحادثة، أفسدن العمل الاجرامي واستغرق رزيك وقتاً حتى مات، وقبل أن يموت دعا قاتلته لتأتي وتراه، وبنوع من الغباوة قدمت، حيث استجمع الوزير المحتضر قوته الأخيرة وقتلها ومات، وخلفه ابنه في منصب الوزارة، ولم يدم في منصبه أكثر من خمسة عشر شهراً قبل أن يقتل بدوره من قبل حاكم مصر العليا شاور الذي هيمن على السلطة لفترة ثمانية أشهر قبل أن يجرده أيضاً من الملكية معاونه درغام العربي، ونجا شاور بحياته، وفر خارج البلاد باحثاً عن ملجأ في سورية في بلاط نور الدين، في حين أعد درغام أكثر من سابقيه في مصر قائمة شاملة بجميع أولئك الأشخاص الذين ربما خلقوا تهديداً لأمنه، وبعد أن أتمها نفذ في جميع من وردوا في القائمة حكم الموت في طقوس تبجيل محكمة، وأدى ذلك إلى حرمان الجيش المصري من جميع ضباطه القياديين.

ولم يكن في الامكان استمرار حالة الأمور الغريبة في مصر لمدة طويلة، وكان كل من أمالرك ونور الدين على علم بذلك، وأنه أن لم يفعل أحدهما شيئاً فيما يخص ذلك، فإن الآخر سيفعل. وكان نور الدين أولهما في التحرك، ففي نيسان 1164 أرسل جيشاً تحت إمرة كردي دعي شيركوه قائده العام المعتمد مع أوامر بإرجاع الوزير السابق شاور إلى منصبه، وهو مدرك أنه حالما

يكون شاور وزيراً فإنه سيضمن أن يصبح عميلاً ثابتاً لنور الدين وتصبح مصر بالتالي حليفة له، وأخذ القائد شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ـ الرجل الذي عرفه الإفرنج وخافوه كصلاح الدين فقط وبالتالي نال أول احترام له في تلك المرحلة من التاريخ، وتحرك الجيش الاسلام بسرعة كبيرة متجاوزاً الإفرنج وأسر درغاماً. وفي شهر أيار مات درغام، وعاد شاور وزيراً مرة أخرى. وحقق شيركوه كل شيء، خرج من أجله، وكان لابد أن يكون ذلك نهاية الأمر، وإذا كان ذلك، فقد نجح نور الدين في تعطيل زحف الملك أمالرك ولكن لم تكن تلك النهاية، ذلك انه حالما وجد شاور نفسه قد عاد إلى السلطة، تبرأ من صفقته مع نور الدين، وطلب من شيركوه أن يعود إلى بلاده، ورفض الكردي، وسار واحتل المدينة المحصنة بلبيس في دلتا النيل شمال القاهرة، وناشد شاور أمالرك من أجل المساعدة، وكان هذا الأخير سعيداً لينال حظه في التدخل، وزحف على رأس جيشه من القدس إلى مساعدة شاور، ولدى وصوله إلى مصر انضم إليه في حصار بلبي، وكان الحصار ينجح تقريباً في النهاية، لولا أن نور الدين صمم على انقاذ ضابطه الكردي، ومن أجل ذلك هاجم امارة أنطاكية مجبراً أمالرك على رفع الحصار والاسراع بالعودة إلى وطنه، كما قرر شيركوه العود أيضاً، وترك شاور في السلطة في مصر، حيث بقي الوضع السياسي متوتراً وفوضياً كالسابق، وفي أثناء ذلك أعاق نور الدين عن الهجوم على مدينة أنطاكية خوفه من البيزنطيين.

وبعد عامين في 1167 أمر نور الدين شيركوه أن يغزو مصر مرة أخرى وأخذ القائد العام الكردي للمرة الثانية معه ابن أخيه صلاح الدين، وقد حاول أمالرك اعتراضه، وكاد الجيش المسلم أن يتدمر في عاصفة رملية مروعة في صحراء سيناء، ومع ذلك وصل شيركوه إلى مصر بسلام وعبر النيل وضرب معسكره قرب الأهرامات في الجيزة على الضفة الغربية للنهر، ووصل جيش أمالرك بعد عدة أيام، وتمركز على الضفة الشرقية قرب أسوار القاهرة حيث

رحب به بحرارة الوزير شاور، وعقد حلف بينهما، ومن أجل ختم الاتفاق جرى اختيار رجلين قياديين من الإفرنج وقد قيدا في موكب مهيب خلال القصر لمقابلة الخليفة، وذهل الرجلان برؤية الروعة كما أدهشهما الترف المتألق للمكان، وكسائه بالرخام، ثم أخيراً قابلا وجها لوجه غلاماً صغيراً أسمر يجلس فوق عرش ذهبي مغطي إلى نصفه بستار ذهبي، ولاضفاء الشرف على الحضور ألح أحد الإفرنج على مصافحة الخليفة، وبعد أن نزع الغلام القفاز الذي كان يرتديه، وهو انتهاك وتخط للآداب والسلوك، ولكن الغلام الصغير بدا أنه غير مبال، ووافق أن يضع يده في يد البربري الزائر، وغادر الإفرنجيان متأثرين بعمق بغنى البلاد الفاطمي.

ولفترة شهر لم يطرأ أي جديد، بل كان الجيشان يحدقان ببعضهما عبر النيل. وجعلت الحشرات المنطقة هناك لا تطاق بالنسبة لجنود المسيح ومحاربي الرسول على السواء، ولكن أمالرك الذي تفوق جنوده في العدد على المسلمين تدبر أمره لعبور النهر لمطاردة شيركوه إلى الحوض الأعلى من النهر عند مدينة المنيا على مسافة 150 ميلاً جنوب القاهرة، حيث التقى الجيشان أخيراً للقتال، ولم يكن الصراع حاسماً، ذلك أنه رغم فوز شيركوه أكثر من الإفرنج، لكن جيش أمالرك بقي الجيش الأضخم عند نهاية اليوم، وبينما أعاد المسيحيون تنظيمهم سار شيركوه وصلاح الدين إلى الشمال مرة ثانية، وعبرا القاهرة واحتلا الاسكندرية حيث تبعهم أمالرك وحاصر المدينة على الفور، وكان المكان واسعاً وتدبر شيركوه معظم جيشه فانسل خارجاً في إحدى الليالي تاركاً صلاح الدين في الداخل مع حامية صغيرة، وفي الحال نشأ وضع جديد يشبه مأزقاً حرجاً، وبعد بضعة أشهر عندما اتضح أنه ليس في امكان أحد الطرفين توقع هزيمة الطرف الآخر، أرسل شيركوه مبعوثيه إلى أمالرك يقترح شروط اتفاق سلام، ووافق أمالرك عليها بعد قلقه على الشؤون في سورية، وشغل صلاح الدين دوراً قيادياً في عملية التفاوض على السلام، وقد قيل أنه لم يجعل له عدداً من الأصدقاء بين الإفرنج في ذلك الوقت فحسب، بل انه

كان محبوباً جداً ومحترماً للغاية حتى أن أحد فرسان الأمراء الإفرنج شرفه برفعه إلى رتبة فاس، وحتى لو أن القصة كانت غير صحيحة فهي تقدير رفيع لصلاح الدين اعتقد به خصومه.

ولو أن أمالرك كان راضياً أني ترك وحده في تلك الفترة، فلربما اختلف تاريخ الممالك الصليبية، وعندما عاد إلى القدس ترك لواءه يرفرف فوق المنارة في الاسكندرية وبقيت حامية من جنوده في القاهرة لحراسة ومراقبة حليفه شاور، الذي كان ملزماً أني دفع مبلغاً كبيراً سنوياً لدعم قواته العسكرية، وبالنتيجة أصبحت مصر محمية افرنجية، ولكنه لم يكن راضياً جداً، وبعد تعزيز تحالفه مع البيزنطيين بزواجه من ابنة أخ الامبراطور العظيمة الأميرة ماريا كومينيا، شعر أنه قوي بما فيه الكفاية لمحاولة فتح مصر كلها، ولو أن الأسطول البيزنطي حاصر مصر من جهة البحر فربما نجح، ولكنه لم يزعج نفسه بالانتظار حتى المساعدة البحرية من حليفه، وحثه فرسان الاسبتارية الذين لم يستطيعوا الانتظار للتثبت من الثروة الأسطورية للفاطميين، وبالاضافة إلى بعض القادمين الجدد من فرنسا الذين كانوا يتوقون لقتل بعض المسلمين، وسار أمالرك في تشرين الأول 1168 عبر صحراء سيناء وفرض حصاراً على بلبيس، ودافع عن المدينة عصبة من الجنود المصريين.

ورغم أنهم قاتلوا بضراوة وشجاعة فاجأتا أمالرك فقد تغلب محرزاً انتصاراً بعد ثلاثة أيام من المقاوم اليائسة، وتلا ذلك مذبحة دموية رهيبة أذهلت أيضاً الإفرنج أنفسهم، وعمل أمالرك ما في وسعه لوقف سفك الدماء، ولكن في الوقت الذي تمت السيطرة على رجاله كان الخراب قد حصل.

وكان بعض المصريين على استعداد للترحيب بالإفرنج كمحررين من اساءة استعمال السلطة في الخلافة الفاطمية، وكان المسيحيون خاصة مسرورين بوصول إخوانهم المسيحيين، وبعد المطبحة في بلبيس ارتدت مصر كلها في غضب وردة فعل قوية ورفضتهم. لأن القتل هناك كان شيئاً غير شرعي، فقد ذبح المسلمون والمسيحيون الأقباط رجالاً ونساء وأطفالاً

وشيوخاً بنفس التقدير المروع وغير المميز، وبعد عدة أيام وصل المسيحيون الذين قدموا حديثاً من أوربا إلى مرفأ تنيس الذي كان سكانه أقباطاً جميعاً تقريباً، فكان هناك مذبحة أخرى رهيبة حيث انقلب المصريون الذين كانوا في جانب الإفرنج إلى جانب نور الدين، ودعا الخليفة شيركوه لامتلاك القاهرة حيث مات بعد عدة أسابيع من التخمة، وخطا الرجل الذي قدر له أن يكون سوط عذاب للإفرنج إلى مسرح الأحداث، وهكذا أصبح صلاح الدين حاكم مصر.